استطراد من الناصرة لـ «أبي فوق الشجرة»

نـــــزار حــــســــن❖

لم أعرف يومًا معنى أن يَشْعر شخصٌ معيّنٌ من الثقافات المستعمَرة بالدونيّة والوضاعة حين يلتقي المستعمِر أو يتعامل معه. لقد صدف كثيرًا أنْ شاهدتُ مَنْ ينحني من أبناء المستعمَرات أمام المستعمِر (أو «الرجل الأبيض»)، وأذْكر أنّ كثيرين اتّهموني بردّة فعلٍ عنفيّة على ذلك الانحناء، واتُّهمتُ في أغلب الأحيان بالعجرفة.

لم أكن وحيدًا في ردّة الفعل هذه؛ فلقد قيل لي إنّ إخواني وأخواتي (الأربعة) كانوا مثلي، مع فارقٍ كبيرٍ في نظر أولئك المتّهِمين: وهو أنهم لم يكونوا متعجرفين مثلي. هكذا كان أمرَنا أيّام دراستنا الجامعيّة في حيفا وتل أبيب والقدس. وكان لنا، كباقي الطلاّب الفلسطينيين من فلسطين (الوطن ــ المستعمَرة المسمّاة دولةَ إسرائيل)، احتكاكٌ مكثّفٌ بالطلاّب الإسرائيليين تَراوح بين المواجهات والصداقات والعمل السياسيّ الفلسطينيّ: «تعايشٌ» محفوفٌ بالخطر والتحفّظ، جعلا منه كذبةً لدى الصادقين، وسلعةً لدى الصهاينة والاستسلاميين. وقلتُ لنفسي: إذا كان الاتهامُ صحيحًا، فالفضلُ فيه يعود إلى والديّ.

فوالدتي لم تنقطعْ منذ طفولتي عن تلاوة قصّة فلسطين، مصرّةً على أنّ تحريرَها أمانةٌ في أعناقنا، نحن أولادها. أما والدي، فلم أسمعْه مرّةً يتفوّه بكلمة «فلسطين.» فلقد حرص دائمًا على شيءٍ آخر، لم أتبيّنْ سحرَه عليّ إلاّ بعد سنين طويلة، ولا يزال فعلُ هذا السحر يلازمني من دون أن أستطيعَ مقاومته: يعودني الآن كما عادني في الحرب على غزّة وبعدها، ويبدو أنّ مفعولَه يتضاعف ويُدْخلني في دوّامته.

كانت لوالدي مكتبةٌ متواضعةٌ يحتفظ فيها بمجموعةٍ لا يُستهان بها من كتب الأدب الروسيّ والفرنسيّ والأمريكيّ (يسمّونه «العالميّ» ولا أدري لماذا). ولكنّ أكثرَ ما تربّع في رفوفها كتبُ طه حسين، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس، والعقّاد، ومحمود أمين العالم، ولويس عوض، ورجاء النقّاش، وشوقي ضيْف، وإحسان عبد القدّوس، وأسماء كثيرة أخرى من مصر. كان سلامة موسى من أهمّ أولئك الكتّاب بالنسبة إليه، ولا أدري إلى اليوم سببَ ذلك السحر على والدي. وزاد استغرابي

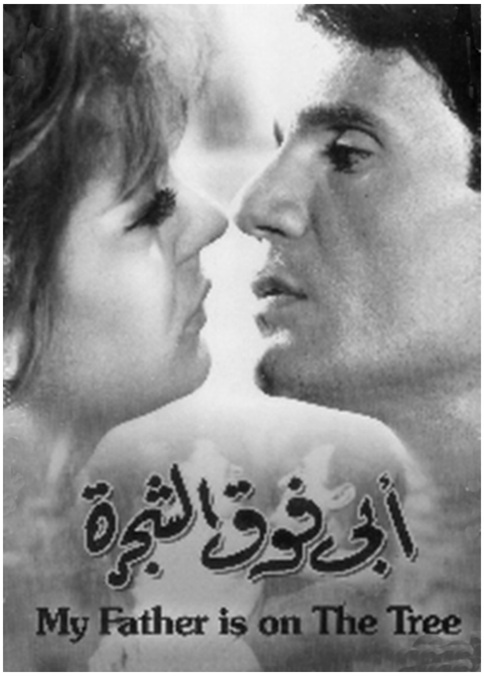

حين بلغتُ من العمر ما أهّلني لقراءةٍ نقديّةٍ لموسى، فاكتشفتُ الأفكار «المنحولة» و«الجوفاءَ» في كتابته، والتي بلغتْ أحيانًا حدّ تحقيره لثقافة ابن البلد على طريقة الاستعمار. ولا أعرف إلى اليوم إنْ كنتُ أستطيع أن أقول لوالدي إنّ سلامة موسى هو من مصائب العرب (أشكّ أصلاً في أنه اعتبر نفسَه عربيّاً، وأعتذر عن تشكيكي بهويّته: فهذا التشكيك تسلل إليّ من والدي، الذي كان يعشق كونه عربيّاً مع أنه لم يستلطف العروبيين والوحدويين يومًا، وكره الشيوعيين، ولم يطق الإسلامَ السياسيّ أيضًا).

سأستطرد، وما الكتابة سوى استطراد، فأقول إنه، من بين الثلاثة آلاف كتاب الموجودة في مكتبة والدي، لم يكن هناك إلاّ كتابٌ عبريٌّ واحدٌ، عنوانُه (إنْ صحّت الترجمة) **أحاديث محاربين**، وذلك على عكس ولعه بالجرائد ومحطّات الإذاعة والتلفزيون الإسرائيليّة التي كان يزعم (وبحقّ!) أنها أكثر مهنيّةً وانفتاحًا من نظيراتها العربيّة.

❖ ـ مخرج سينمائيّ من فلسطين.

لم تكن الكتبُ العربيّة هي الأمرَ الوحيدَ الذي أولع به أبي. فلقد كان مولعًا أيضًا بعبد الوهّاب وأمّ كلثوم وسيّد درويش وفاتن حمامة (أعتقد أنه كان يعشقها)، وغيرهم كثيرون. ولم ينقطعْ عن ذكر مصر، ومصرُ كانت الهويّةَ العربيّةَ بالنسبة إلينا، حتى أحياها فينا، على الرغم من أننا ممنوعون من زيارتها.

غير أنني لم أدر أنّ مصر، الجالسةَ على رفوف مكتبة أبي، أصبحت الجزءَ الأهمَّ من هويّتي العلنيّة التي منحتني معرفةً ذاتيّةً وإنسانيّة أواجهُ بها كلَّ تحدٍّ، حتى جاء ذلك اليومُ من سنتي الجامعيّة الأولى في حيفا.

❖ ❖ ❖

كنتُ قد انخرطتُ في العمل السياسيّ الجامعيّ ضمن «حركة أبناء البلد» التي تنادي بتحرير فلسطين وتعلن ولاءها لمنظمة التحرير الفلسطينيّة. وكان رفاقي في هذه الحركة يشجّعونني على مواجهة الإسرائيليين لقدرتي على ذلك من الناحيتين السياسيّة والنفسيّة (إنْ لم تصدّقوا فاسألوا عمر السعيد الذي كان تحبّبًا ينعتني بـ «الوكح» بدلاً من الوقح. وبالمناسبة في كفركنا ـ قضاء الناصرة، حيث حوّل المسيحُ الماءَ إلى خمر، ينطقون القافَ كافًا). وكان أكثرَ ما يعجبهم في مواجهتي للإسرائيليين هو عدمُ اكتراثي بخطابهم المتحفّظ عن الثقافة العربيّة ونوايا العرب السياسيّة، فيقسموننا بين معتدلين ومتطرّفين: فمن يَقبل دولةَ إسرائيل معتدل، ومَن يرفضها متطرّف! وكنتُ ربّما «المتطرّف» الوحيد الذي لم يستطيعوا «قتله» (مجازًا). كنتُ أتصرّف إزاءهم تلقائيّاً، وبشكلٍ بديهيّ أشبه بالوراثيّ، حتى ذلك اليوم الذي اكتشفتُ فيه أنّ «البديهيّ» و«الوراثيّ» سرٌّ اسمُه: مصر... وسحرُها ومكتبةُ والدي المصريّة.

في ذلك اليوم، إذًا، كنتُ مستقلاً الحافلةَ من أعالي جبال الكرمل ذاهبًا إلى منطقة «البلد» في مدينة حيفا. عند المحطّة الثانية صعدتْ طالبةٌ إسرائيليّةٌ كنتُ قد عرفتُها منذ مدّة قصيرة، وكانت تتعلّم في الجامعة نفسها. حين رأتني ابتسمتْ لي، ثم جلستْ إلى جانبي بعد التحيّة.

كانت قد غازلتني سابقًا عدّة مرّات (أُقسمُ بأنني لم أمسكْ يدَها مع ذلك، وأقسم بأنها كانت جميلة وجذّابة جدّاً، وأقسم بأنني لم أبادلها شهوتها لأنها لم تحرّكْ فيَّ ما قد تحرّكه أنثى في ذكَر، وأقسم بانّ إسرائيليّتها لم تكن سببَ عدم انجذابي إليها). وحين جلستْ إلى جانبي غازلتني مرةً أخرى. لا أخفي أنني استمتعتُ بعرضها تسليمَ ذاتها لي. وكانت تخفي قابليّتها للاستسلام لي بإكثارها الكلامَ والتساؤلات، وهي تتحرّك وتتلوّى إلى حدٍّ أنني شعرتُ بدفء فخذها الملاصقة.

لم أستطع أن أبادلَها إلاّ ابتسامةً خجولةً وصمتًا مدقعًا. وفجأةً صمتتْ، وإذا بها تقول: «أتدري؟ أنتَ من القلّة القليلة جداً بين الطلاب العرب الذين يتمتّعون بثقةٍ عاليةٍ بالنفس. فأنتَ لا تهاب أن تكونَ كما أنت: تتكلّم العربيّة بين الإسرائيليين في كلّ مكان وبصوتٍ عالٍ، ولا تخفي أبدًا أنكَ فلسطينيّ وعربيّ، وتعبّر عن أفكارك المتطرّفة علنًا من دون أيّ اعتبارٍ لحساسيّة اليهود (الإسرئيليين).» (بعد ٢٠ سنة من هذه الحادثة، وصفني أقرانُها من الطبقة والتهذيب نفسهما في العالم العربيّ بالغرور والصداميّة).

في تلك اللحظة حضر والدي في وجداني، وحضرتْ مصرُ المتربّعةُ على رفوف مكتبته، حتى استوليا عليّ كليّاً. وتذكّرتُ قصصَ الأطفال التي من أجلها (ومن أجل تناول الكنافة النابلسيّة) ذهب والدي إلى نابلس بعد أقلّ من شهر على احتلال باقي فلسطين سنة ١٩٦٧. كان عددُ هذه الكتب لا يقلّ عن الخمسين، وكانت تلك هي المرةَ الأولى التي أعرف فيها أنّ هنالك أدبَ أطفالٍ باللغة العربيّة. كانت القصص جميعُها من مصر، وهي صادرة عن «دائرة المعارف.» هذه القصص اندمجتْ بطفولتي الفلسطينيّة، فأصبحت «الجاموسة» و«سي حسنين» و«الترعة» كلماتٍ لم أفقهْ معناها (مع أنّ والدتي «ترجمتها» إلى اللهجة الفلسطينيّة) لكنها كانت عاملاً رئيسًا في تكوين هويّتي وثقافتي وفكري... أو ما أسمته تلك الإسرائيليّة (وكان اسمُها داليا) «ثقةً بالنفس.» ثقةُ النفس هذه كانت، إذًا، دومًا متربّعةً على رفوف مكتبة والدي المتواضعة.

تركتُ داليا ونزلتُ من الحافلة. وإذ بي أغنّي: «وحياة ألْبي وأفراحه، وهناه في مساه وصباحو، مفشْ فرحانْ أبدًا في الدنيا زيّ الفرحان بنجاحو!» وبدأتْ أسراري تنكشف: عبد الحليم وفيلم **أبي فوق الشجرة**. لم يخطرْ في بالي قطّ أن أشرحَ لها أنّ عبد الحليم الذي يحرّك فيَّ مشاعرَ الحبّ وشهوة المرأة، وسلامة موسى الذي لم أتحمّلْ أفكارَه، وكلَّ مَن جاء من مصر، هم الذين منحوني ثقتي بنفسي، وهم مَن علّموني أن أتصرّفَ على ذلك النحو. لقد جعلني التفكيرُ في مصر سعيدًا بمصر، وعرفتُ للمرة الأولى أنّ هنالك حربًا أخرى مع مَن احتلّ وطني فلسطين. كنتُ مزهوّاً بأنّ لي شيئًا ليس لها، وأنها فشلتْ في أن تذكّرني بميرڤت أمين عشيقةِ أحلامي الأزليّة. فداليا لم تستطع ولو دغدغةَ أحلامي العاطفيّة والجنسيّة، المملوكةِ كليّاً من ميرڤت أمين (أرجو من السيّدة ميرڤت أمين أن تعذرني، إذ لا حول ولا قوة لمراهقٍ حالمٍ مثلي).

❖ ❖ ❖

لكنْ منذ ذلك الحين استطاعت مصرُ أن تخذلني مرّاتٍ عديدة. كان أوّلها في حرب الـ ١٩٧٣، حين استطاع الإسرائيليون صدَّ

الهجوم المصريّ بالعبور العكسيّ لقناة السويس. أما الصدمةُ الكبرى فكانت حين كبرتُ وفهمتُ ما عنته رحلةُ السادات من القاهرة إلى برلمان إسرائيل. لكنّي، مع ذلك، لم أكرهْ مصر. كنتُ أحبّ مصر رغم السادات، وبقيتُ أحبّها حين اتَّهم الكلُّ تقريبًا مصرَ الرسميّةَ بالخيانة. كنتُ من أوائل المسافرين إلى مصر بعد أن تعمّد الساداتُ في برلمان إسرائيل وأغرق مصرَ والعربَ في غيبوبةٍ منذ ذلك اليوم. ذهبتُ إلى القاهرة لأكتشفَ سرَّ صوت عبد الحليم (بعد رحيله)، ولأستنشقَ هواءَ **أبي فوق الشجرة**، ولأمشيَ على صفحات **ثلاثيّة** نجيب محفوظ، ولأعيشَ أسطورةَ **خان الخليلي**.

كنتُ مندهشًا في تلك الزيارة الأولى القصيرة لأنّ كلَّ الذين قابلتُهم هناك، جنودًا وسائقي سيّارات وتجّارًا...، أفهموني أنهم لا يستطيعون تحمّلَ فكرة تعميد رئيس مصر في برلمان إسرائيل، ولا «السلامَ» الآتيَ مِن فعلته تلك. ومع ذلك دُهشتُ للطبقيّة المتوحّشة هناك. لم أتوقّعها! لم أفكّرْ أنّ مصر هكذا! أذْكر أنّ أحدهم، حين قلتُ له إنني من فلسطين، عرض أن يأخذني إلى الشيخ إمام. شكرتُه على لطفه، وذهبتُ لأرى سيّدنا الحسين، والأزهرَ، وبابَ العتبة، ولأشربَ المنجا. ولم أبحثْ عن ميرڤت أمين، بل فضّلتُ أن تظلّ تسكن أحلامي خوفًا من أيّ صدمة.

❖ ❖ ❖

رجعتُ إلى فلسطين محبطًا من وحشيّة الطبقيّة المصريّة (تحلو للكثيرين تسميتُها «الفقر»). كانت مصدرَ انزعاجي، وكانت صورُها المتجسّدة في التوسّل و«البقشيش» و«حاضرْ يا سعادة البيه» تلاحقني. رفضتُ الذهابَ إلى مصر مجدّدًا، وأصبحتُ أهزأ منها بسببها. ولكنّ وجداني ظلّ متشبّثًا بعبد الحليم وبمصر المتربّعة على رفوف مكتبة والدي المتواضعة؛ فكنتُ أحيانًا أخجل كلّما ذُكرتْ مصرُ، كأني أخجلُ من نفسي.

مرّ ما يقارب العشرين سنةً وأنا على هذه الحال. إلى أن جاء يومٌ وتعرّفتُ فيه على مصر واحتككتُ بها من خلال عملي السينمائيّ. فقد ذهبتُ إليها في زيارة عملٍ قصيرةٍ أجبرتني على أن أعيش فيها شهورًا قليلة. سُحرتُ بها، وسُحرتُ بالقاهرة تحديدًا، ولم أتوقّفْ بعدها عن التفكير في مُخرج السينما المصريّة الأول صلاح أبو سيف الذي صنع نوعًا من السينما جاءت تعقيداتُه مزجًا بين التحليل المركّب الفذّ للواقع وسذاجة الكاميرا الواقعيّة. هذه السينما فجأةً وَحّدتْ سخطي النابعَ من الطبقيّة القاتلة في مصر، وحبّي لمصر المتمثّلَ في مكتبة والدي وعبد الحليم وميرڤت أمين. وهكذا عاد حبّي الأولُ لمصر، وعادت ثقتي بها بفضل الثقة التي منحتني إيّاها.

ولكنْ هذه المرة تعرّفتُ على شيءٍ جديدٍ لم أكن أعرفه عن المصريين. كان شيئًا محبطًا: فكلما انتُقدتِ التعاسةُ وانتُقد التناقضُ المميتُ للطبقيّة المصريّة، ردّد الجميعُ بغضب: «لا، دي مش صورة مصر!» وكنتُ دائمَ التساؤل عن ذلك الحبّ الذي يشترك فيه، على حدّ سواء، الشعبُ المصريُّ ونظامُه، وبدا لي ذلك «الحبّ» وهميّاً لأنّ تلك الـ «مصر» كانت وهميّة.

وفجأةً جاءت الحربُ على غزّة، فدلّت على لعنة العرب على ذاتهم وطبقيتهم تجاه أنفسهم أضعافًا مضاعفةً عمّا شعروه تجاه ذاتهم في الحرب على لبنان (جنوبه) سنة ٢٠٠٦.

هكذا أصبحتُ أسيرُ كأنني سكران لا يصحو من خبله: لقد تبعثرتْ مصرُ الموجودةُ على رفوف مكتبة أبي، واحتُجزتْ روحُ عبد الحليم (أين السيدة ميرڤت أمين؟). وكانت تلك هي المرةَ الأولى في حياتي التي أردتُ أن أسمع فيها أحدًا يقول، وبصوتٍ عالٍ، تلك الجملةَ البلهاء: «لا، دي مش صورة مصر!» ولكني لم أسمعها إلاّ من القلة. فهل يساعدني من يَخلف صلاح أبو سيف على لملمة رفوف مكتبة والدي؟ وهل تكون غزّة بدايةً لأملٍ حفره في نفسي فيلمُ **أبي فوق الشجرة**؟

الناصرة

في العدد القادم من الآداب

- زياد الرحباني/صائد التحوّلات والانكسارات (٢)
- ماذا تبقّى من هويّة اليسار العربيّ اليوم (ملفّ ١)
- أبحاث وقصائد وقصص ودراسات في كتب